الفصل الخامس عشر

الحالة الاجتماعية

تطورت حالة مصر الاجتماعية تطورًا بعيد المدى في عصر محمد علي؛ فتكونت هيئة اجتماعية تختلف كثيرًا عما كانت عليه من قبل.

عدد السكان

كان سكان مصر في أواخر القرن الثامن عشر يبلغون ثلاثة ملايين نسمة، وإذا أخذنا بإحصاء المسيو «مانجان» عن سنة (١٨٢٣م) فإن عددهم كان تلك السنة ٢,٥١٤,٤٠٠ وهذا النقص في العدد له أسباب معقولة، فإن سكان مصر قد نقصوا في عهد الحملة الفرنسية والسنوات التي أعقبتها، وفي أوائل حكم محمد علي؛ لكثرة الفتن والثورات والحروب التي أفنت عددًا كبيرًا من السكان وأنقصت النسل، على أن الإحصاء الذي عمل سنة (١٨٤٥م) دلَّ على زيادة عدد السكان إلى ٤,٤٧٦,٤٤٠ نسمة، فلنتكلم عن طبقاتهم وحالتهم الاجتماعية في ذلك العصر.

طبقات المجتمع

أسلفنا الكلام في الجزء الأول من «تاريخ الحركة القومية» وبالطبعة الأولى (ص٤٨) عن حالة مصر الاجتماعية في أواخر القرن الثامن عشر، وبينا أن سكان مصر في ذلك العصر كانوا فئتين: فريق الحكام، وفريق المحكومين، فالحكام هم فئة المماليك الذين استبدوا بحكم البلاد السنين الطوال، والمحكومون هم الشعب المصري بطبقاته الأربع التي فصلنا الكلام عنها وهم: طبقة العلماء، وطبقة الملاك والتجار، وطبقة المزارعين، وطبقة الصناع.

الهيئة الحاكمة

تبدلت طبقات المجتمع في عصر محمد علي، فبادت فئة المماليك، ولم يعد لهم حول ولا قوة، بل لم يعد لمعظمهم وجود، وآل الحكم إلى محمد علي باشا وأسرته، ولا يغيب عن البال أن محمد علي أصبح بولايته الحكم بإرادة زعماء الشعب جزءًا من الهيئة الاجتماعية المصرية، وأنه قد تمصر واستعرب، فأسس دولة مصرية، وجيشًا مصريًّا، وأسطولًا مصريًّا، وثقافة مصرية عربية، واندمجت شخصيته في شخصية مصر، فأصبح مصريًّا حكمًا وسياسة وعملًا، وزاد في هذا الاندماج أنه رهن مصيره ومصير أسرته بمركز مصر ومستقبلها، واتخذ مصر موطنًا له كما اتخذ نابليون -الكورسيكي الأصل الإيطالي الجنس- فرنسا موطنًا له، ورضيت هي به عاهلًا لها وموضع فخرها.

ومما أكد ارتباط محمد علي بمصر واندماجه فيها إعلانه الحرب على تركيا ومناصبته إياها العداء، وحروبه المتواصلة عليها، فقد جعلت هذه الحروب لمصر وحاكمها شخصية منفصلة عن السلطنة العثمانية، واستمد محمد علي قوته من الجيوش المصرية، ونال انتصاراته الحربية باسم مصر، ولحساب مصر وعظمتها، وانقطعت الصلات القديمة التي كانت تجعل ولي الأمر في مصر نائبًا عن سلطان تركيا؛ بل انقطعت الروابط بين مصر وتركيا، وصار لمصر شخصية مستقلة أظهرها محمد علي واندمج فيها، ومن هنا يبدو لك الفرق عظيمًا بين حكم الأمراء المماليك وحكم محمد علي باشا، فالمماليك بحكم ابتياعهم أصلًا من أسواق الرقيق واعتمادهم على هذا المصدر في تأليف بطانتهم وأشياعهم وجنودهم، كانوا يستمدون كيانهم وقوتهم من مصدر خارجي، فهم أبدًا يعدون أنفسهم عنصرًا منفصلًا عن البلاد، وهم لذلك ولقلة تناسلهم لم يندمجوا في الهيئة الاجتماعية المصرية، ولا كان لهم بها صلة ما. أمَّا محمد علي والأسرة المحمدية العلوية فقد استمدوا قوتهم ومجدهم من قوة الأمة المصرية، ولعلك تذكر في كلامنا عن الجيش المصري النظامي أن محمد علي لم يستطع تأليفه من العناصر غير المصرية، كالأرناءود والترك والدلاة وغيرهم؛ لما فطروا عليه

من التمرد والعصيان، وأنه لم يوفق لإنشائه إلا من صميم المصريين، فالقوة الحربية التي شاد عليها محمد علي ملكه، والتي هي عماد الدول والممالك، كانت مادتها مصرية، وعنصرها مصري، وهذه الاعتبارات قد قضت على ما في نفس محمد علي من العواطف القديمة نحو تركيا ومقدونيا، وزادته اندماجًا في مصر.

وهذه الحقيقة تنطبق كذلك على أعوانه ممن كانوا في الأصل من أصل غير مصري، فكثير منهم كانوا من سلالة تركية أو مقدونية، ولكن الحروب التي اشتركوا فيها تحت لواء محمد علي وإبراهيم قد فصلتهم عن موطنهم الأصلي وأدمجتهم في مجموعة الشعب المصري، فصارت مصر وطنًا خالدًا لهم ولأسراتهم وذراريهم، حاربوا من أجلها، وبذلوا جهودهم وأرواحهم ودمائهم في سبيل رفعتها ومجدها، وهؤلاء قد اندمجوا في الشعب وصاروا جزءًا من الهيئة الاجتماعية المصرية الجديدة، ولا غرابة في ذلك؛ فإن من مميزات مصر أنها تدمج في كيانها العناصر والقوميات التي تتصل بها برابطة الفتح أو التوطن، وتصبغها على الزمن بصبغة القومية المصرية، ولقد عبر إبراهيم باشا عن هذا الشعور بحديثه الذي نقلناه عنه (ص٢٤٧ وبالطبعة السابقة) وذكر البارون (بوالكونت)، حديثًا آخر لمصطفى مختار بك ياور إبراهيم باشا وملازمه في حروب سورية والأناضول (ووزير المعارف العمومية في عهد محمد علي) قال فيه: «إننا وإن كنا في الغالب مولودين في تركيا؛ لكننا قد اكتسبنا الجنسية المصرية بحكم التوطن، وأنتم معشر الفرنسيين تعترفون بالجنسية الفرنسية لمن يقيم بفرنسا عشر سنوات، أما نحن فقد جئنا مصر قبل أن نتجاوز سن الصبا، فلسنا الآن أتراكًا، ولم يبق فينا ما يربطنا بهذا الشعب الذي لا يترك في طريقه أينما سار سوى دلائل الخراب، ولقد اندمجنا في أمة أخرى أرقى وأنبل وأذكى من الأمة التركية، اندمجنا في تلك الأمة العربية التي سبقت أوربا إلى الحضارة وازدانت أيام عزها وسؤددها بذلك العمران الذي يتجلى للناظرين في المدن الزاهرة التي أنشأتها والعمائر الجميلة التي أقامتها».

فأول عمل سياسي واجتماعي لمحمد علي أنه أدمج شخصية أسرته في كيان مصر وقوميتها، وكذلك نحا نحوه أعوانه في الحكم ممن كانوا في الأصل من عنصر غير مصري، وهنا يبدو لك جانب من عبقرية محمد علي، فلقد كان في بداءة حكمه لا يعدو أن يكون واليًا من ولاة السلطنة العثمانية، فلو أنه حذا حذوهم وكان على شاكلتهم لتعصب للجنسية التركية وعمل على تتريك المصريين كما عمل ولاة السلطنة العثمانية، إذ كانوا دائبين على تتريك العناصر العربية، فيحاربون اللغة العربية، والقومية العربية، ويثيرون في هذا السبيل الفتن والثورات في مختلف الأنحاء، ويضعون القيود والعقبات أمام تقدم الشعب؛ لكن محمد علي باشا عمل على نقيض تلك السياسة فأحيا القومية المصرية واندمج فيها واقتادها إلى الأمام، وأسس دولة مصرية، وعرشًا مصريًّا وملكًا مصريًّا.

ويكفيك لتتبين مبلغ عمله في إحياء القومية المصرية أن الثقافة التي نشر لواءها في مصر كانت ثقافة مصرية عربية، وأنه لم يفكر يومًا في إنشاء ثقافة تركية أو مقدونية، وأن الفضل يرجع إليه في بعث اللغة والآداب العربية من مرقدها بعد أن ظلت مئات السنين ذاوية مضمحلة في عهد الحكم التركي وحكم المماليك.

واندمج إذن محمد علي وأسرته وأعوانه في الحكم في الهيئة الاجتماعية، ولا شك أن اندماج هذا العنصر فيها قد قواها وبعث فيها روحًا جديدة كان لها أثرها في تقدم مصر السياسي والاجتماعي. صحيحٌ أن فئة من المصريين الذين كانوا من عنصر تركي أو مقدوني قد ظلوا ينظرون إلى المصريين الصميمين بعين الزراية، واستمرت هذه الحالة النفسية حتى صارت مع الزمن من بواعث الثورة العرابية؛ لكنها كانت تتلاشى تدريجًا، وأدى تطور الحوادث إلى محو الفوارق بينهم، وصارت القومية المصرية مفخرة المندمجين فيها وموضع حبهم وتقديسهم، وقد ساعد على محو هذه الفوارق ما اكتسبته سلالة الترك والمقدونيين المتمصرين من الثقافة والتهذيب في المدارس والمعاهد التي أسسها محمد علي باشا، فإن هذه الثقافة قد صبغت شبابهم بالصبغة

المصرية، فتلاشت الفروق القديمة التي كان يشعر بها آباؤهم، وكذلك ساعد على محوها اتصالهم بالمجتمع المصري بصلات النسب والمصاهرة، واندماجهم في الأهالي ومشاركتهم إياهم في الحياة الاجتماعية باشتغال الكثيرين منهم وخاصة سكان الأقاليم بالتجارة وزراعة أملاكهم، ومساهمتهم في أعباء الخدمة العامة.

هذا بالنسبة إلى محمد علي وأسرته ورجالات دولته، وهم قوام الهيئة الحاكمة. وإتمامًا للكلام عن هذه الهيئة يجب أن نتكلم عن الطبقة المتعلمة التي اشتركت في الحكم، فلا يعزب عن الذهن أن المدارس التي فتحها محمد علي والبعثات العلمية التي أرسلها إلى أوربا قد كوَّنت عنصرًا جديدًا من صميم المصريين كان له فضل كبير في تقدم المجتمع المصري والإدارة المصرية، ذلك هو عنصر الشباب المتعلم الذي ثقفته العلوم والمعارف، فنهض بالهيئة الاجتماعية المصرية نهضة كبرى، وكان رسول العلم والحضارة والعمران في ربوع وادي النيل، في المدن والقرى والأقاليم، وتولى الوظائف العامة في عصر محمد علي وخلفائه، فاضطلع بأعبائها في الحربية والبحرية والإدارة والتعليم والمالية والصحة والأشغال العمومية، وعلى يده تمت منشآت الري والعمران؛ كفتح الترع وإقامة القناطر وإنشاء المدارس والمعاهد والمستشفيات وبناء القصور والثكنات والقلاع والاستحكامات والمصانع والترسانات والموانئ والمنائر والسفن الحربية والتجارية وغير ذلك من المنشآت العامة.

فالهيئة الحاكمة في عصر محمد علي كان قوامها شخصية محمد علي وأسرته ورجالات حكومته وخريجي المدارس والمعاهد والبعثات العلمية. ونظرة بسيطة في تأليف هذه الهيئة تدلك على مبلغ التقدم الذي تدرج إليه نظام المجتمع في ذلك العصر، قياسًا إلى ما كانت عليه الهيئة الحاكمة في عصر المماليك، فالحكام المماليك كانوا خليطًا من أجهل العناصر لم يهذبهم تعليم ولا عرفان، فلا جرم أن بقيت إدارة الحكومة في عهدهم مثلًا لأحط نظم الحكم، وقد بينا في الجزء الأول من «تاريخ الحركة القومية» مبلغ ما وصل إليه انحطاط نظام الحكم في عصرهم وما أفضى إليه من

التأخر في حالة البلاد الاجتماعية والعلمية، أمَّا الهيئة الحاكمة في عصر محمد علي فقد نالت حظًّا كبيرًا من الرقي وخاصة بعد ما خرجت البعثات والمدارس الحديثة عددًا كافيًا من الشباب المتعلم، ولا شك أن هذا الرقي قد نهض بالأداة الحكومية ورفع مستواها في مختلف الأعمال، فإنشاء الدواوين وتنظيمها، وتأسيس المعاهد والمدارس، ونشر لواء الحضارة والعلوم هو أثر من آثار الهيئة التي تولت الحكم في عصر محمد علي، ثم في عصر سعيد وإسماعيل.

فالطبقة المتعلمة في المدارس والبعثات -وهي الطبقة الممتازة من طبقات المجتمع- بدأت في الظهور على عهد محمد علي، وقد كان لها فضل كبير في ترقية مستوى الهيئة الاجتماعية، ومنهم من لعبوا دورًا كبيرًا في حياة مصر السياسية أو العلمية في عهده وعهد خلفائه، أمثال شريف باشا وعلي باشا مبارك ورفاعة رافع الطهطاوي ومظهر باشا وبهجت باشا وغيرهم ممن ترجمنا لهم.

ويكفيك أن تلقي نظرة على كثيرٍ من المعاهد والمباني العامة التي أنشئت في ذلك العصر وتحصر ثمراتها لتعرف أثر ذلك العنصر الجديد من الهيئة الحاكمة في تقدم مصر وتطور الهيئة الاجتماعية المصرية.

هذه كلمتنا عن الهيئة الحاكمة، وإذ تكلمنا عن الحكام فلنتكلم عن المحكومين، ولنستعرض الطبقات الأخرى من الشعب وما طرأ عليها من التبديل في عصر محمد علي.

الأزهر والعلماء

فالعلماء هم الطبقة التي كانت لها في عهد المماليك النفوذ العظيم والتأثير الكبير في الأمة وقيادة أفكارها كما أوضحنا ذلك في الجزء الأول من «تاريخ الحركة القومية»، وكانت لهم الزعامة الأدبية والسياسية بين الجماهير، وإليهم يرجع تدبير الحركات الشعبية التي ظهرت على مسرح الحوادث السياسية في عهد الحملة الفرنسية، وبعد انتهائها، وهم الذين أثاروا الشعب على حكم المماليك، ثم على الوالي التركي، كما تراه

مبسوطًا في الجزأين الأول والثاني، ولكن نفوذهم قد تضاءل في عهد محمد علي وانحلت زعامتهم بتحاسدهم وتخاذلهم وائتمارهم وإياه بالسيد «عمر مكرم» حتى انتهت المؤامرة بنفيه كما سبق الكلام عن ذلك في الفصل الأول، فلم تقم لهم قائمة بعد نفي زعيمهم وإقصائه من الميدان؛ بل صاروا تبعًا للحكومة من غير أن يكون لهم أثر في سياستها أو في مشاريعها، وهذا تأويل ما ذكرناه في الجزء الثاني من «تاريخ الحركة القومية» (ص٣٦١ وبالطبعة الأولى) لمناسبة الكلام عن عظم نفوذ العلماء في أوائل القرن التاسع عشر؛ إذ قلنا: إنهم «كانوا موئل الشعب، يفزع إليهم عند وقوع الملمات، وكانت مساوئ خورشد باشا هي الباعثة على ذلك؛ ففي عهده قوي سلطان العلماء وبلغ نفوذهم أقصى مداه حتى أثاروا الشعب واقتلعوا بقوته الوالي عن كرسي ولايته وأجلسوا (محمد علي) مكانه، ولم يسبق لهم هذا النفوذ من قبل، كما لم يخلص لهم مثله بعد انقضاء هذا العصر».

وفي الواقع أنهم لم يخلص لهم نفوذهم القديم بعد نفي السيد عمر مكرم، ولم يبق لهم إلا أثارة من الاحترام يسبغها عليهم انتسابهم إلى الدين والأزهر.

ومما زاد في تضاؤل نفوذ العلماء أن الأزهر ظل على نظامه القديم ولم يساير حركة التقدم والإصلاح التي نهض بها محمد علي باشا، فانتقل مركز الثقافة من الأزهر إلى المدارس والمعاهد والبعثات، وانكمش العلماء ولم يشتركوا في حركة التجديد والإنشاء في مختلف نواحيها، فعجزوا عن الاشتراك في حروب مصر أو في إدارة حكومتها أو في سياستها وأعمال العمران التي قامت بها، وبديهي أن انعكافهم على المسائل الدينية، وعجزهم عن الاشتراك في الأعمال العامة التي تمت في عصرهم، كل ذلك كان له أثره في تضاؤل نفوذهم وإضعاف كلمتهم، إذ ما من شك أن الفئة التي تخرجت من المدارس الحربية والبحرية أو العلمية والهندسية هي التي اضطلعت بأعباء الأعمال سواء في خارج مصر أو في داخلها، وهم بحكم توليتهم عبء الجهاد وسياسة الحكم وحملهم لواء النهضة قد امتازوا على طبقة العلماء وحجبوها بما نالوه

من السلطان والنفوذ، وتضاءلت منزلة العلماء وظهر الفرق جسيمًا بين ما آل إليه أمرهم من الضعف وخمول الذكر، وما كان لهم من نفوذ وسؤدد حين تولوا قيادة الحركات الشعبية في عهد الحملة الفرنسية أو بعدها، وحين كانوا في أوائل حكم محمد علي يتقدمون الصفوف في الدعوة إلى التطوع للجهاد دفاعًا من الذمار كما فعلوا عند مجيء الحملة الإنجليزية سنة (١٨٠٧م).

ولهذه المناسبة يحضرنا ما رواه الجبرتي عن رجوع إبراهيم باشا بعد انتصاراته في حروب الوهابية، وكيف استقبل العلماء الذين جاءوا لتهنئته، فقد لاحظ الجبرتي أنه لم يقابلهم بالاحترام اللائق؛ وذكر في هذا الصدد: «أن إبراهيم باشا رجع من هذه الغيبة متعاظمًا في نفسه جدًّا، وداخله من الغرور ما لا مزيد عليه، حتى أن المشايخ لما ذهبوا للسلام عليه والتهنئة بالقدوم وأقبلوا عليه، وهو جالس في ديوانه لم يقم لهم ولم يرد عليهم السلام، فجلسوا وجعلوا يهنئونه بالسلامة، فلم يجبهم ولا بالإشارة».

فهذا الذي ذكره الجبرتي يعطينا فكرة عن تضاؤل منزلة العلماء بعدما كان لهم من صولة ونفوذ، ونعتقد أن تقصيرهم عن الاضطلاع بالأعباء العامة كان له أثر كبير في سقوط هيبتهم، فضلًا عن تحاسدهم وتنافسهم، وخذلانهم للسيد عمر مكرم، فلا غرو أن يقابلهم إبراهيم باشا بعد قدومه من حرب شاقة احتمل فيه ما احتمل من الشدائد والأهوال بغير المقابلة التي كان يقابلهم بها محمد علي في أوائل حكمه.

ومما يسترعي النظر أن يد الإصلاح التي تناولت التعليم والإدارة والري والحربية والبحرية لم تمتد إلى الأزهر؛ بل تركه محمد علي كما كان على نظامه القديم، ولعل السبب في ذلك أنه خشي أن يثير سخط العلماء والجماهير إذا هو عرض لنظام التعليم فيه أو أقدم على إصلاحه وجعله يساير حركة التقدم العلمي الحديث، أو لعله لم يجد من بين العلماء من يضطلع بهذه المهمة ويعهد إليه بها، ولو أنه وجد من بينهم مثل السيد جمال الدين الأفغاني أو الشيخ محمد عبده لنهض الأزهر منذ نيف وثمانين سنة نهضة علمية واجتماعية تؤتي أبرك الثمرات، ولكن محمد علي لم يفكر في إصلاح

الأزهر، ولا فكر فيه علماؤه وأقطابه؛ فوقفت حركته وانتقلت النهضة العلمية إلى المدارس النظامية التي أسسها محمد علي.

على أن الأزهر ظل مع ذلك المورد السائغ الذي استمدت منه المدارس الحديثة والبعثات العلمية تلاميذها، فمنه اختارت الحكومة طلبة المدارس العالية التي أنشأتها، وكثيرًا من أعضاء البعثات العلمية التي أوفدتها إلى أوربا، فتخرج منه بواسطة البعثات والمدارس علماء نابهون كان لهم القدح المعلى في نهضة مصر العلمية والاجتماعية، فالأزهر من هذه الناحية كان له فضل كبير على النهضة العلمية الحديثة، ومن جهة أخرى فإن الحكومة كانت تختار من رجاله بعض المتضلعين في اللغة العربية لتنقيح وتهذيب الكتب المترجمة للغة العربية في الطب والرياضيات وغيرها، ويسمون المحررين، وطائفة أخرى لتصحيح الكتب عند طبعها وهم المصححون، ولهؤلاء وأولئك فضل كبير على نهضة التعريب والتأليف.

الزراع والصناع والتجار

تقدمت حالة الفلاح تقدمًا نسبيًّا عما كانت عليه في عهد المماليك[1]، ولكن لا يخفى أن حياته في الجملة بقيت تدعو إلى الألم والإشفاق، فإن ما ذكرناه عن حرمانه حق التملك واستهدافه لفداحة الضرائب ومساوئ الاحتكار ومظالم الحكام جعله في حالة تعسة، فزيادة الحاصلات الزراعية وإقامة أعمال العمران لم يقترن بها ارتقاء حالة الفلاح الاجتماعية، وقد وصف المسيو «مانجان» حالته في ذلك العهد بقوله: «إذا صح أنه لا يوجد في العالم بلاد أغنى من مصر من الوجهة الزراعية، فليس ثمة بلاد أخرى أتعس منها سكانًا، وإذا بقي فيها العدد الذي بها من السكان (سنة ١٨٣٢م) فالفضل في ذلك إنما يرجع إلى خصوبة أرضها وقناعة فلاحها»[2].

(١) انظر الجزء الأول من «تاريخ الحركة القومية» (وبالطبعة الأولى ص٣٢).

(٢) «مانجان» ج٢، ص٣٤٢.

وقد ساءت حالة الفلاحين لدرجة اضطرار الكثيرين منهم إلى الهجرة من قراهم، وخربت قرى عديدة بسبب هذه الهجرة، واضطرت الحكومة إلى إصدار الأوامر المشددة برجوع المهاجرين وتهديد من لم يرجع بأشد أنواع العقاب؛ ولكن مهما قيل في مظالم ذلك العصر، فإنها لا تُذْكر بجانب مظالم الحكام في عهد المماليك.

أمَّا الصناع فإن أمرهم يحتاج إلى بيان، فالعمال الذين انتظموا في سلك المصانع الكبرى التي أنشأها محمد علي كالترسانة الحربية والبحرية أو الفابريقات التي سبق الكلام عنها، فإنهم مارسوا صناعات جديدة حذقوها ومهروا فيها، وتكونت منهم طبقة من العمال الفنيين كانوا موضع إعجاب من شاهد أعمالهم، وكان لهم أثر صالح في تقدم مصر الصناعي، ويكفيك أن ترجع إلى شهادة الإفرنج في هذا الصدد لتعرف مدى هذا التقدم.

أمَّا عمال الصنائع اليدوية في الصناعات الصغرى التي كانت معروفة من قبل، فهؤلاء قد ساءت حالتهم بسبب نظام الاحتكار حتى اضطر كثير منهم -كما يقول المسيو «مانجان»- إلى ترك الصناعة والاشتغال بالزراعة.

وكذلك طبقة التجار قد تراجعت واضمحلَّ شأنها لاحتكار الحكومة التجارة الداخلية والخارجية، وبالرغم من ازدياد متاجر مصر في ذلك العصر، فإن ثمرة التجارة كانت تعود على الحكومة وعلى الوسطاء من الإفرنج الذين كانوا يتبادلون وإيَّاها حركة التجارة الخارجية، ولذلك اقترنت زيادة حاصلات مصر وتجارتها الخارجية بظاهرة غريبة، وهي تضاؤل الثروات الشخصية؛ فحينما كانت حاصلات مصر أقل مما وصلت إليه، كان الأهالي أيسر حالًا، ولما زادت الحاصلات حلَّ الفقر محل اليسر عند الأهلين، وذلك راجع إلى نظام الاحتكار الذي فرضته الحكومة على حاصلات مصر، ولم ينتفع من هذه الزيادة في الحاصلات سوى الإسكندرية التي اتسعت تجارتها وصارت سوقًا لأقطان القطر المصري وحاصلاته؛ أمَّا المحلات التجارية في القاهرة ودمياط ورشيد فقد هبط عددها عمَّا كانت عليه من قبل.

ويقول المسيو «مانجان» (ج٣، ص٢٢٧): إنَّ عدد التجارة المصريين في القاهرة قد تناقص في ذلك العصر، ومما يستدعي النظر ويؤيد هذا القول أنه لم يظهر في ذلك العصر من التجار الوطنيين من شغل مركزًا كبيرًا في عصر محمد علي مثل السيد أحمد المحروقي كبير تجار مصر في أوائل القرن التاسع عشر وابنه السيد محمد المحروقي ممن ترجمنا لهم، وهذا كله راجع إلى مساوئ نظام الاحتكار.

الأعيان

وبقي الأعيان من ذوي البيوت والعصبيات القديمة حافظين لمكانتهم؛ غير أنهم صاروا في عهد محمد علي أكثر خضوعًا للحكومة مما كانوا في عهد المماليك.

العربان

كان عدد العربان أو البدو المصريين في عصر الحملة الفرنسية نحو مائة ألف؛ تتألف منهم ستون قبيلة، وعدد المقاتلة منه من (١٨) إلى (٢٠) ألفًا من الفرسان، ولم يتغير هذا الإحصاء كثيرًا في عصر محمد علي. وكانوا إلى أوائل القرن التاسع عشر لم يألفوا حياة الحضر، فكان تنقلهم في صحراء يجعلهم في حرب مستمرة مع الفلاحين القائمين على الزراعة، وانصرف كثير منهم إلى قطع الطريق والاعتداء على القرى الآمنة. وكلامنا ينصرف إلى غالبية العربان؛ فإن بعض القبائل البدوية كانت -ولم تزل- متصفة بكريم الخصال؛ تكرم الضيف، وتأوي الجار، وتنصر الضعيف وتحمي الذمار.

فكر محمد علي مليًّا في علاج حالة العربان، ورأى من الحكمة بادئ الأمر أن يهادن زعماء القبائل، ويسلك حيالهم مسلك المحاسنة، فعقد الاتفاقات معهم؛ ولكن القبائل نقضت هذه الاتفاقات، فأدرك محمد علي أن لا مناص من أخذهم بالقوة، فجرد عليهم كتائب الفرسان، فأخذت تناوشهم وتسد عليهم السبل إلى أن أذعنوا وثابوا إلى الطاعة وطلبوا الصلح، فرضي أن يصالحهم على أن يقيم زعماؤهم بالقاهرة ليكونوا رهائن عنده يضمن بهم طاعتهم وولاء قبائلهم، وأجرى عليهم الرواتب

والأرزاق، فكان لهذه الوسيلة تأثير كبير في إخلاد القبائل إلى الهدوء والسكينة، ولجأت الحكومة إلى وسيلة حكيمة تصرف بها البدو المنتشرين في أطراف البلاد عن عيشة البداوة وتدخلهم في حظيرة العمران، فأقطعهم أراضي شاسعة أعفتها من الضرائب ينتفعون بها ويستغلونها.

وقد كانت هذه الوسيلة من بواعث تحضير القبائل البدوية، وإدماجها في جسم الهيئة الاجتماعية. ولما اجتذب محمد علي رؤساء العشائر من العربان حبب إليهم أن ينتظموا في سلك الجيش النظامي الذي أسسه، وعرض عليهم أن تدفع الحكومة لمن ينتظم من العربان في سلك الجيش أجورهم، على شرط أن يأتي كل منهم بفرسه وبندقيته، فلبوا الدعوة واستفاد الجيش المصري منهم فوائد جمَّة، واشتركوا في حروب السودان والحجاز وسورية والأناضول، واتخذ منهم إبراهيم باشا حرسه الخاص.

ولقد كان إدماج القبائل البدوية في جسم الهيئة الاجتماعية من أهم أعمال العمران التي قام بهم محمد علي.

بقايا الرقيق

كانت تجارة الرقيق لم تزل مباحة في ذلك العصر، فاستخدم كثير من الترك وقليل غيرهم فتيان المماليك يشترونهم من أسواق الرقيق ليكونوا أتباعًا لهم وخدمًا، وقد بلغ عدد أولئك الفتيان (٢٠٠٠) مملوك، يضاف إليهم من أسروا من الأروام في حرب اليونان واعتنقوا الإسلام (ص٢٤٠، الطبعة السابقة). وكان يوجد في بيوت الأغنياء نحو ثلاثة آلاف من (الجواري البيض) الشركسيات؛ منهن نحو ستمائة من يونانيات الموره، أو من جزيرة كريت وسافز. وقد اعتنق غالبهن الإسلام وصرن في حكم الجواري البيض، وكان يوجد في القاهرة أيضًا نحو ألف جارية حبشية أو سودانية بنسبة جارية في كل بيت يقمن في البيوت بالخدمة والطهي وتربية الأطفال ونحو ألفين من السودانيين اشتراهم الأفراد من أسواق الرقيق، ونحو (٢٥٠٠) آخرين منتظمين جنودًا في سلك الجيش المصري، وقد اندمج كل أولئك في جسم الهيئة الاجتماعية

المصرية وصاروا مع الزمن والتناسل من عناصر تكوينها، لا يختلفون في شيءٍ عن عناصرها الأصلية.

obeikan.com